

## الثقافة اليونانية العربية خلال العصر العباسي الأول (حركة الترجمة نموذجاً)

أسامة المتني \*

لقد كانت حركة الترجمة في العصر العباسي الأول مثالا للثقافة اللغوي/الفكري بين اليونان والعرب، حيث تم إحياء العلم اليوناني الكلاسيكي داخل البيئة الثقافية العربية عبر احتضان واسع لنشاط الترجمة شمل فئات مهمة من المجتمع العباسي. لذا ينبغي التركيز منذ البداية على أن حركة الترجمة لم تكن نابعة من اهتمامات شاذة لبعض المجموعات الدينية أو الإثنية الناطقة بلسان يوناني وعربي معاً، بل كانت حركة اجتماعية عامة توافقت حولها فئات اجتماعية مختلفة المشارب، فمَجَمَعُ الترجمة كان مَجْمَعاً علمياً ضَمَّ مختلف الأ-عراق والديانات؛ فانظر كيف أن رعاة الترجمة بل والمترجمين أنفسهم كانوا عرباً وغير عرب مسلمين وغير مسلمين... وعلى العموم يمكن أن نقول دون مبالغة إن هؤلاء كانوا عالميين في نظرهم إلى الآخر.

إن حركة الترجمة اليونانية العربية لا- يمكن استيعابها بمعزل عن التاريخ الاجتماعي والسياسي والإيديولوجي للدولة العباسية؛ فهذه الأبعاد التاريخية هي التي توضح لنا خلفيات وأسباب وغايات قيام هذه الحركة التي يمكن أن نعدّها من أهم الحركات العقلية في تاريخ البشرية، ومثل هذه المقاربة توضح على نحو ما أن حركة الترجمة التي استهلّت خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري وامتدت على مدى يزيد عن قرنين لم يكن نشاطها ولا- ظهورها عشوائياً؛ بل كان نشاطاً منظماً وظهوراً مُسَدّداً من طرف نخبة عملت على تحقيق أهدافها الثقافية والإيديولوجية فضلاً عن تحقيقها لأهداف علمية سرّعت من التطور الحضاري في المجتمع العباسي.

ومن ناحية أخرى يمكن التأكيد على أن حركة الترجمة كانت مرتبطة إلى درجة كبيرة بتأسيس بغداد كعاصمة للامتداد الإسلامي الشاسع، لذا وبالنظر إلى الإيديولوجية التي تبناها الخلفاء الأوائل لبني العباس؛ وهي إيديولوجية متأثرة بالفكر الساساني الفارسي، فقد كان المطلوب من بغداد هو أن تكون عاصمة ثقافية وعلمية قبل أن تكون عاصمة سياسية، فهذا هو الدور الذي سيجعلها قادرة على استيعاب جوهر الثقافات الأخرى سواء كان علماً أو فلسفة. هذا ما جعل باحثاً متخصصاً مثل دمترى كوتاس - الذي اعتمدنا عليه كثيراً في هذا المقال - يعتقد بأن حركة الترجمة اليونانية - العربية في بغداد تمثل مرحلة حاسمة في مجرى تاريخ البشرية مهما كان سبيل تقييمها. وأنها تعادل في أهميتها أثينا بركليس أو النهضة الإيطالية أو الثورة العلمية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهي حريّة بأن يُعترف بها وأن تحتل مكانتها في ضميرنا التاريخي(1).

## العصر الأموي:

لقد كان العصر الأموي عصر انفتاح على الآخر المختلف ثقافيا، لكنه انفتاح لم يتعدى حدوده المتمثلة في التعريف بالإسلام، وبغض النظر عن قوة هذا الدين العالمي وتمكّنه من قلوب الناس قبل أن يفتح المسلمون أوطانهم، فإن اهتمامنا هنا محصور في قضية الترجمة، والقول في ذلك أن الترجمة من اليونانية إلى العربية خلال الفترة الأموية، كان واقعا فرضه الامتداد الإسلامي. لكن هذا الوضع لم يشمل سوى الأمور الضرورية المتعلقة بشؤون الحياة اليومية التي تفترض توصالا بين مكونات المجتمع الأموي رغم تباين لسانه ولغته، وهكذا فالترجمة كانت محصورة في الدوائر الحكومية ومعاملات الحياة اليومية، فقد احتفظ الأمويون الأوائل بالموظفين الناطقين باليونانية في إدارة الدولة بدمشق، وعلى ما يروي ابن النديم فإن الديوان لم يعرّب إلا في أيام عبد الملك أو في أيام ابنه هشام وقد تم ذلك على يد بعض الموظفين من بينهم سرجون بن منصور الرومي. إن التواصل الاجتماعي والتجاري في حياة الناس الخاصة في الشام ومصر - اللتين ظلنا نستخدمان اللغة اليونانية حتى بعد نهاية عصر الأمويين - أدى إلى أن أصبحت الترجمة حقيقة يومية، وتؤكد ذلك الصكوك والعقود المتداولة في تلك الفترة (2). على أنه يبدو أن ترجمة الكتب العلمية لم تتم في أيام الأمويين، فقد اقتصرت الترجمة على الوثائق التي تخص الحياة اليومية للناس؛ كالعقود التجارية والإدارية، أو المراسلات السياسية والتجارية بين حكام بني أمية وبين الشعوب التي لها لسان غير عربي، وأما الترجمة التي تروى عن الأمير الأموي خالد بن يزيد لكتب في الكيمياء والتنجيم فهو أمر لا- تدعّمه أغلب البحوث التاريخية لكونه لا يستند إلى دليل واضح.

وخلاصة القول: إن الخلافة الأموية لم تتبنى أي مشروع للترجمة كما أن المجتمع الأموي لم يكثر لهذا الأمر إلا- بالقدر الذي يُمكنه من التواصل اليومي، وإن كان الأمويون قد انفتحوا على الآخر اللغوي؛ فإن الهدف لم يكن هو فهم هذا الآخر واستيعاب ثقافته، بل إن الهدف كان هو نشر الدعوة الإسلامية من جهة وتوسيع رقعة الخلافة الإسلامية من جهة أخرى.

## العصر العباسي:

### تشغيل مبدأ المدافعة الفكرية:

إن النهج السياسي الذي اتبعه خلفاء بني العباس الأوائل - وعلى الخصوص أبو جعفر المنصور وابنه المهدي - كان له أثر كبير في الدفع بحركة الترجمة وإثبات مكانتها لدى الأمراء والقادة العسكريين وموظفي الدولة فضلا عن جمهور العلماء والمفكرين؛ إذ أن هؤلاء جميعا ما لبثوا أن أصبحوا من رعاة الترجمة، الأمر الذي أدى إلى تطور عدد

المُتَهَنِّين لهذه الصنعة؛ وهذا ممَّا يقتضيه قانون العرض والطلب في تكثير أصحاب الصنائع أو تقليهم(3). لنسترشد إذا ببعض الخلفاء العباسيين الأوائل في محاولة رصد لحركة الترجمة بوصفها سلوكاً فكرياً نتج بفضل الإرادة السياسية للدولة العباسية ممَّا أدى بها إلى أن تصبح ظاهرة اجتماعية.

لقد كان تأسيس بغداد تحصيناً للخلافة العباسية ولثورتها الناجحة، فقد عمل المنصور على أن تكون عاصمة الخلافة مجالاً تجتمع فيه تشكيلات فكرية ومذهبية متباينة تكون سنداً له في مدافعتة الفكرية للذين لا- يمكن قهرهم بقوة السلطان، إذ أن المنصور كان مخططاً لسياسة مدافعة فكرية طويلة الأمد كانت حركة الترجمة من بين نتائجها المباشرة، وهذا أمر نتبيته بوضوح لدى خلفه المهدي (ت169هـ - 785م) الذي أمر بترجمة كتاب الطوبيقا(4) (Topique) مواضع الجدل) لأرسطو إلى العربية؛ وهي الترجمة التي تمت على يد البطريرك النسطوري طيماتاوس الأول بمساعدة ابن نوح كاتب والي الموصل، ثم ترجم هذا الكتاب بعد ذلك إلى العربية، مرة على يد أبي عثمان الدمشقي ومرة على يد يحيى بن عدي(5). لكن لماذا هذا الاهتمام في هذا الوقت بالذات بترجمة نص صعب كهذا؟ ثم لماذا يهتم خليفة المسلمين نفسه بهذا الكتاب؟ من الواضح أن المهدي لم يكن معنياً بالمنطق الأرسطي في حد ذاته ولكنه كان يبحث عن الأدوات الفكرية التي تمكنه من تنزيل سياسة المنصور على أرض الواقع، فعزم الخليفة على مدافعة خصومه بالجدال الفكري، كان سبباً للفت انتباهه إلى كتاب "طوبيقا" الذي يتضمن قواعد هذا الفن وأسسها، ثم إن اكتساح الإسلام وهيمنته على باقي الملل والأديان أدى إلى انتشار الجدل والمناظرات لإفحام المعاندين ونصرة الدين على باقي الملل والنحل؛ يبدو هذا واضحاً إذا تأملنا العدد الكبير من الأعمال المعروفة في المناظرة سواء بين المسيحيين والمسلمين أو بين المسلمين ومعتقي المذاهب والأديان الأخرى.

لقد كانت سياسة العباسيين سياسة شدة وإرخاء، فالمانوية مثلاً تم اعتبارها "زندقة" قد توجب القتل لكونها تثير النزعات الإحيائية الفارسية وهذا سيؤدي بدوره إلى إثارة الكثيرين في الإدارة العباسية ممن كانت لهم خلفيات فارسية لإيديولوجيتها(6)، أما المسيحيون واليهود فلم يكونوا مصدر خطر سياسي لكن خصومتهم كانت فكرية، فهم أهل الكتاب والنخبة المثقفة المتمرسنة في استخدام أساليب الجدل والمناظرة، لذا فإن نقل كتاب "طوبيقا" إلى العربية اقتضته الضرورة الفكرية في مدافعة الآخر المتمكن من أدوات الحوار تمكناً ينبغي مضاهاته حتى تكون الغلبة والانتصار.

إن النضال السياسي في أيام المهدي وسعي الأسرة العباسية وراء الشرعية اعتمد على مواقع فكرية متعددة وهذا اقتضى منهم مدافعة غيرهم سواء بالقوة أو بالحوار الفكري، فالمتكلمون في تلك الفترة كانوا قد ضبطوا فن الجدل، وكان مجموع النظار قد اتفقوا على أن الحوار لا يتم إلى وفق أصول وقواعد محددة ينبغي تمثلها واحترامها في كل مناظرة، فكتاب "طوبيقا" أو "مواضع الجدل" كان إذن وثيق الصلة على نحو واضح بالحوارات المتبادلة بين العقائد، لذلك فقد ترجم مرات متعددة لعل عبارته تصبح أدق وأوفى في

الدلالة على المقصود، وهذا يصدق كذلك على كتاب الطبيعة لأرسطو الذي نقل إلى العربية بغية امتلاك مضامين معرفية يُتوسل بها في المطارحات الكلامية(7).

### تشغيل مبدأ الاستيعاب الفكري:

لقد لعب مؤسس بغداد أبو جعفر المنصور (ت158 هـ - 775م) دوراً أساسياً في تهيئة الجو المناسب لبروز حركة الترجمة وتطورها، خصوصاً وأن أوائل الترجمات قد تمت في عهده ولا- أدل على ذلك من ترجمة إبراهيم الفزاري كتاب "السندهند" وهي رسائل هندية في علم الفلك يرجع تاريخها إلى عام 425 ق.م(8).

و نَهَجُ المنصور كان سياسة ذات حدين: أولها يتمثل في القضاء على الثورات بالقوة والثاني يتمثل في احتواء إيديولوجية الحركات المضادة، وكان السبب الذي دفع المنصور إلى ذلك تفتنه إلى كون الذين يحملون السلاح لمواجهة العباسيين هم قلة لكن المعتقدين بتوجههم الثوري كثرة لا- يمكن القضاء عليها بتاتا(9)، والناظر حتى في شكل بغداد يرى أن شكلها كان دائرياً يتوسطها قصر الخليفة؛ وهذا يرمز إلى سيطرة المركز التامة، كما أن موقع بغداد على مقربة من المدائن عاصمة الساسانيين يرمز مرة أخرى إلى أن الإمبراطورية العباسية هي وريثة الإمبراطوريات الفارسية القديمة(10)، لذا فقد كانت العاصمة العباسية هي المجال الذي تم فيه إفراغ الثقافات الأخرى من جاذبيتها وأهميتها، وصوغها ضمن مزيج ثقافي جديد، ساهمت حركة الترجمة في تشكيله، وهذا يوضح لنا بكل تأكيد الأسباب والدوافع الكامنة وراء الدعم الذي قدمه الخلفاء العباسيون الأوائل لهذه لحركة.

لقد شَغَلَ الخلفاء العباسيون - كما سبق وأن قلنا - بترسيخ سيطرة المركز وهذا لا يتأتى إلا بتماهي الإنتاجات الثقافية والفكرية مع الخط الرسمي الذي تتبناه دار الخلافة، والحادثة التي وقعت بين المنصور والإمام مالك بن أنس توضح ذلك، فقد طلب المنصور من مالك أن يُتخذ كتاب الموطأ باعتباره النص الوحيد المقبول، لكن مالكا رفض ذلك؛ أي أنه رفض أن يصير نصّه مَطِيّة وحُجّة للسيطرة على باقي النصوص. لكن هذه السيطرة الفكرية والعلمية ستعرف نجاحاً مع المأمون الذي تبنى مذهب الاعتزال بوصفه المذهب الرسمي والوحيد للدولة، فكانت المحنة التي عرفت بمحنة خلق القرآن.

أما في ما يتعلق بحركة الترجمة فإن الاعتقاد السائد هو أن المأمون هو الذي استهل هذه الحركة، وهذا يخالف المعطيات التاريخية التي تؤكد لنا تعهد الخلفاء العباسيين الأوائل بالترجمة(11).

وقد ولد المأمون سنة 170هـ-786م أيام كانت حركة الترجمة قد خطت خطوات واسعة، ونشأ في الجو الثقافي الذي كان قد نما بما كان للبراكمة من دور في ذلك، وكما قرأ المأمون كتب القدماء وانكب عليها في شبابه(12) فإن إقامته بمرو عاصمة خراسان ووريثة الفكر الساساني القديم جعله مُستبصراً بالدور الذي قد تلعبه حركة الترجمة في

استيعاب التكتلات الثقافية والفكرية المختلفة وصهرها في بوتقة واحدة تتحكم دار الخلافة في توجيهها فتستفيد من ذلك سياسيا وثقافيا واجتماعيا.

لقد حمل المأمون على خصومه حملة دعائية وقعت على أرض خصبة بين المفكرين الذين سارعوا إلى بث هذه الدعاية ونشرها وهذا الأمر يُنظر إليه من خلال سياستين: سياسة داخلية تتمثل في ترسيخ عقلانية اجتماعية منضبطة للمركز وكانت نتيجتها فرض المحنة، وسياسة خارجية تقوم على العدائية ضد بيزنطة تمثلت في توجيه ضربات عنيفة ضد البيزنطيين؛ لا- لأنهم كانوا كفرة فحسب ولكن لأنهم كانوا من الناحية الثقافية أدنى مرتبة لا- من المسلمين فقط، بل حتى بالنسبة إلى أجدادهم اليونان القدماء(13). وعلى العكس من ذلك فالمسلمون فضلا عن كونهم أرفع شأنًا بسبب الإسلام فقد كانوا أيضا أعلى شأنًا لأنهم استوعبوا العلوم والحكمة اليونانية وترجموا كتبهم إلى العربية، وهذا التفوق ألقى الضوء على القيم الحضارية للإسلام باعتبارها قيم منفتحة وعقلانية، ومن ثم فقد أضحت حركة الترجمة تزود المسلمين بأدوات إيديولوجية لدحض البيزنطيين وقتالهم.

هذه الأمور مجتمعة جعلت فيلسوفا كبيرا مثل الكندي يفتعل نسبا أظهر فيه أن يونان، وهو الجد الرمزي لليونان القدماء - هو أخ لقحطان جد العرب، وبذلك يمكن اعتبار علوم اليونان عربية أصلا، وأن احتضانها في المجتمع العباسي - عبر حركة الترجمة لم يكن سوى إعادة تأهيل هذه العلوم في بيت أصحابها الأول(14).

لقد كانت الدعوة واضحة في أيام المأمون إلى التهوين من القيمة الثقافية والفكرية لبيزنطة بقطع صلتهم مع اليونان، خصوصا وأن المسلمين قد تفوقوا عليهم عسكريا ومعرفيا؛ فقد ورد في تاريخ اليعقوبي أن المأمون غزا أرض الروم سنة 216هـ، ففتح اثنا عشر حصنا وعدة مطامير وبلغه أن طاغية الروم قد زحف، فوجه إليه العباس ابنه فلقبه فهزمه، وفتح الله على المسلمين، ووجه إليه "توفيل" ملك الروم بالأسقف صاحبه وكتب إليه كتابا بدأ فيه باسمه فقال المأمون: لا أقرأ له كتابا يبدأ فيه باسمه ورده وكتب إليه توفيل بن ميخائيل: لعبد الله غاية الناس في الشرف ملك العرب من توفيل بن ميخائيل ملك الروم من قبل، وسأل أن يقبل منه مائة ألف دينار والأسرى الذين عنده وهم سبعة آلاف أسير وأن يدع لهم ما افتتحه من مدائن الروم وحصونهم ويكف عنهم الحرب خمس سنين فلم يجبه إلى ذلك(15).

إن العامل الأساسي الذي أدى إلى كون البيزنطيين هم الأدنى في نظر العباسيين هو ظهور النصرانية؛ فالحكمة كما يقول المسعودي في كتابه "مروج الذهب" لم تزل نامية عالية في زمن اليونانيين تُعظم العلماء وتشرف الحكماء وكانت لهم الآراء في الطبيعيات والجسم والنفس والتعاليم الأربعة و علم التنجيم والموسيقى (...). إلى أن تظاهرت ديانة النصرانية في الروم (البيزنطيين)، فغفوا معالم الحكمة وأزالوا رسمها ومحووا سبلها وطمسوا ما كانت اليونانية أبانته وغيروا ما كانت القدماء منهم قد أوضحت(16).

إن هذا الأمر يوضح بالأساس أن الإسلام لا- مشكلة له مع الثقافات الأخرى وحركة

الترجمة خير دليل على ذلك بعكس النصرانية التي حولها البيزنطيون إلى سلاح تعصب ديني، بموجبه تعصب الأفكار وتحرق الكتب ويضايق العلماء؛ يقول ابن النديم في الفهرست " كانت الفلسفة ظاهرة في اليونانيين والروم قبل شريعة المسيح عليه السلام فلما تنصرت الروم منعوا منها وأحرقوا بعضها وخزنوا البعض ومنع الناس من الكلام في شيء من الفلسفة (17).

إن هذا يؤكد أن بيزنطة كانت مية ثقافيا لذا فالدولة الإسلامية وبقيادة المأمون ستكون بلا ريب هي الوريثة الحقيقية لحكمة اليونان وعلومهم، ولقد تم للمأمون ما أراد بعد أن قاد حملة ناجحة ضد البيزنطيين نزعت عنهم إرثهم المفترض لليونان القديمة ووهبته لبغداد عاصمة العباسيين التي انكبت على ترجمة التراث اليوناني حتى تستأثر به في نهوضها الحضاري المستوعب لثقافة الآخر.

لقد ساهمت هذه الظروف في زيادة الاهتمام بحركة الترجمة، لا من طرف الخليفة فحسب، بل من طرف فئات اجتماعية واسعة آمنت بأن مثل هذا الاهتمام قد يرسخ مصالحها السياسية والثقافية بشكل أفضل. ومن المعلوم أن حركة الترجمة ارتبطت ببيت الحكمة وارتبط هذا الأخير بالحلم المشهور للمأمون، ويروي ابن النديم ذلك فيقول: " رأى المأمون في منامه كأن رجلا أبيض اللون مشربا حُمرة واسع الجبهة مقرون الحاجب أجح الرأس أشهل العينين حسن الشمائل جالس على سريره. قال المأمون وكأني بين يديه قد ملئت له هيبة، فقلت من أنت قال أنا أرسطوطاليس، فسرتت به وقلت أيها الحكيم أسألك، قال سل، قلت ما الحسن، قال ما حسن في العقل، قلت ثم ماذا قال ما حسن في الشرع، قلت ثم ماذا، قال ما حسن عند الجمهور، قلت ثم ماذا، قال ثم لا ثم. وفي رواية أخرى قلت زدني قال من نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب، و عليك بالتوحيد" (18).

إن هذا الحلم يحدد لنا الحسن في ثلاث أشياء مرتبة على التوالي فالحسن هو: ما حسن في العقل، ثم ما حسن في الشرع، ثم ما حسن عند الجمهور. وهذا الترتيب يتفق تماما مع الرؤية الفكرية التي تبناها المأمون والتي عمل على تنزيلها في أرض الواقع عبر تأييد كامل للمعتزلة، فسلطان العقل في حلم المأمون يسبق سلطان الشرع كما يسبق سلطان الجماعة؛ أي جماعة العلماء التي أصبحت قوتها تزداد شيئا فشيئا باعتبارها الفئة الحامية للنصوص الشرعية ومن ثم باعتبارها المرجع الأعلى، لذا فإن تركيز السلطة وتثبيتها في يد الخليفة اقتضى منه إضعاف سلطة العلماء الذين كانوا يتخذون من الشرع سندا أو لا بلا منازع، كما اقتضى منه فرض العقل باعتباره المرجع الأول الذي به تقنن سلطة العلماء المعتمدين في أغلب أمرهم على الرواية لا على الدراية.

إن النقاش حول الحلم الأرسطي لا يفضي بالضرورة إلى نتيجة مفيدة في ما يخص حركة الترجمة، فهذه الأخيرة كانت قد بدأت قبل عصر المأمون بوقت طويل (19)، لكن ما ينبغي ملاحظته هنا هو أن شخصية مثل شخصية أرسطو أصبح لها اعتبار فكري ومكانة مؤثرة في المجال الثقافي ببغداد، حتى إن بعضا ممن كتبوا عنه في تلك الفترة أو بعدها

يصفونه بالفاضل والحكيم إلى جانب فضلاء آخرين مثل أبقراط وجالينيوس، إذ من الواضح أن مكانة هؤلاء أضحت توازي مكانة أولي الفضل والنهي من العرب والمسلمين، فهذا أحمد بن أبي طاهر يروي عن جعفر بن محمد الأنماطي (20) أنه قال: "تغذينا يوما عند المأمون فظننت أنه وضع على المائدة أكثر من ثلاثمائة لون فكلما وضع لونا نظر المأمون إليه فقال: هذا يصلح لكذا وهذا نافع لكذا (...) فقال له يحيى بن أكثم (21) يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب كنت جالينيوس في معرفته، أو في النجوم كنت هرمس في حسابه، أو في الفقه كنت علي بن أبي طالب في علمه، أو ذكر السخاء فأنت فوق حاتم في جوده، أو ذكرنا الصدق كنت أبا ذر في صدق لهجته (...) "(22).

إن هذا الوصف من طرف يحيى بن أكثم لا يعني سوى شيء واحد وهو نزع الاعتراف بعلماء اليونان وحكمائهم وترسيخ ذلك، بشكل يوازي الاعتراف بغيرهم داخل التراث الفكري العربي قبل الخلافة العباسية بزمان طويل، وهذا يبين مدى التأثير اليوناني في العمق الثقافي العباسي؛ سواء كان ذلك بطريقة غير مباشرة كما هو الأمر في الحلم الأرسطي وقول يحيى بن أكثم أو بطريقة مباشرة كما هو الأمر في حركة الترجمة التي ما لبث روادها يستفرغون جهدهم في ترجمة الأعمال الفهلوية (الفارسية) إلى العربية خلال القرن العباسي الأول حتى شمروا عن ساعد الجد في ترجمة أعمال اليونان وكتبهم بل وتصحيح ما ترجموه مرات عديدة حتى يُقَرَّب المعنى إلى الأذهان تقريبا يمهد لاستثماره في الحياة العلمية والعملية وهو أمر يقتضيه الجو الثقافي والاجتماعي الذي كان يتطور بسرعة في بغداد، فكأننا هنا أمام غليان فكري يجعل الطلب على الترجمة أمرا لازما لا يغفل عنه أولوا الأمر ولا جمهور المتقنين.

ولو استقصينا البحث في بدايات حركة الترجمة لوجدنا أن التنجيم كان أكثر المعارف نفوذا، إذ لما استنزفت الموارد الفهلوية في هذا المجال، كانت العودة إلى اليونانية، فترجم كتاب "تتراببلوس Tetrabiblos" لبطليموس، الذي لم يلبث أن سيطر على كتابة التنجيم بالعربية (23) فألحقت به شروح وتعليقات كثيرة، لذا فإننا نشهد في الفترة العباسية الأولى نشاطا مهما لأبرز المنجمين مثل ابن نوبخت وأبو معشر اللذين انخرطا في حركة الترجمة بل ونجحا في تأليف كتب خاصة جعلت من التنجيم معرفة مؤثرة في المواقف الفكرية والاجتماعية السائدة، حتى إن النخبة الحاكمة اهتمت كثيرا بهذه الثقافة الأمر الذي دعاها إلى طلب ترجمة عدد من الكتب في هذا المجال.

إن الحاجات الاجتماعية والفكرية للمجتمع العباسي جعل الترجمة تفتح على مجالات معرفية متعددة ومتنوعة تتسع باستمرار، فأصحاب الدواوين مثلا كانوا في حاجة إلى معرفة علمية وعملية تمكنهم من القيام بواجباتهم (24) لذا فقد تم التركيز على ترجمة أعمال في الهندسة والحساب، وأهمها كتاب "الأصول" لأقليدس الذي ترجمه من اليونانية الحجاج بن مطر مرتين؛ الأولى في عهد هارون الرشيد والثانية في عهد المأمون، ثم أعاد ترجمته حنين بن إسحاق وثابت بن قرة وغيرهم من العلماء الذين كانوا يصلحون الترجمات الموجودة وينقحونها باستمرار. كما ألف محمد بن موسى الخوارزمي في هذا

الإطار كتابا جامعا - بأمر من المأمون - أسس من خلاله علم الجبر باعتباره مبحثا رياضيا مستقلا ونقصد بذلك كتاب "الجبر والمقابلة" (25) حيث يبسط الخوارزمي حلولا رياضية متعلقة بالإرث والتجارة ومسح الأرض (26) وما إلى ذلك من الشؤون العملية.

وتلبية للحاجات الطبية نقلت العديد من المؤلفات اليونانية إلى العربية وأهمها رسائل جالينيوس التي نجح حنين بن إسحاق في ترجمة جزء كبير منها إلى العربية (27) فضلا عن ترجمته لعهد أبقراط، وكتاب الأقرباذين لديوسقوريدس Dioscorides، والمقالات الأربعة لبطليموس، وكتب المقولات والطبيعة والأخلاق الكبرى لأرسطو، وكتب الجمهورية وطيماوس والقوانين لأفلاطون، وغيرها من الأعمال اليونانية العلمية والفلسفية، إذ كاد المأمون أن يُفلس بيت المال حين كافأ حنين على عمله هذا بمثل وزن الكتب التي ترجمها ذهباً (28)، كما وضع حنين كتاب العشر مقالات في العين وهو من أقدم الأعمال في طب العيون (29).

وحنين هو واحد من أعضاء بيت الحكمة ذلك المجمع العلمي الذي كان يضم خيرة العلماء والمترجمين أمثال: إسحاق بن حنين الذي كان يُعين والده في ترجمة العديد من الكتب فضلا عن اختصاصه بترجمة كتب مستقلة عن اليونانية، والخوارزمي صاحب كتاب "الجبر والمقابلة" و"مفتاح العلوم"، وابن فرخان (30) الذي ترجم العديد من الأعمال لبطليموس، وابن أخ حنين حبيش بن الحسن الذي ترجم إلى العربية بعضا من أعمال أقليدس وجالينيوس وأبقراط وأرخمديس كما ترجم كتاب النواميس لأفلاطون وكذلك كتاب الطبيعة لأرسطو وكتبا أخرى غير هذه، ومن هؤلاء أيضا ثابت بن قرّة الذي ترجم إلى العربية أعمالا كثيرة في الهندسة والحساب منها المقالات الثلاثة الأولى من كتاب "المخروطات لأبولونيوس" وكتاب "المجسطي" لبطليموس ورسالة بطليموس حول تسطيح الكرة كما أعاد ترجمة كتاب "الأصول" لأقليدس اعتمادا على ترجمة حنين. وعلى العموم فقد كان وجود هذا الكم الهائل من العلماء والمترجمين في بيت الحكمة دليلا على الدور الاجتماعي والثقافي الذي كانت تلعبه هذه المؤسسة، باعتبارها محطة أساسية في التثاقف الفكري بين اليونان والعرب، تثاقف لا يقف عند حدود نقل وترجمة أشهر الأعمال اليونانية بل يتعداه إلى فهم متون هذه الأعمال ومقاصد وضعها.

إن قوة الدعم الرسمي والحاجة الملحة إلى البحث التطبيقي، جعل أفق الترجمة يتسع شيئا فشيئا ليشمل مجالات معرفية متنوعة من جهة، ولينشئ لنا من جهة أخرى فئة عريضة من المترجمين تخصص البعض منهم في حقول معرفية دون غيرها وتوسع الآخرون فيها جميعا، وقد كان هؤلاء يطورون معرفتهم باليونانية كما طوروا معرفتهم بالعربية؛ إذ إن الترجمة تقتضي منهم إتقان اللغتين؛ وهذا هو التفسير الذي يمكن أن يعطى للقصة الغربية كيف أن يوحنا بن ماسويه هزأ من حنين وتغيب هذا ثلاث سنوات عاد بعدها وقد بلغت معرفته باليونانية حدًا مكنه من حفظ هوميروس وتلاوته غيبا (31). ولم يكتف حنين بتعلم اللغة اليونانية فحسب، بل عني كذلك بالمجال الثقافي اليوناني لفهم المقاصد التداولية التي تختزنها هذه اللغة. والعربية أيضا باعتبارها لغة الترجمة لم تكن ترضي أولئك الذين



يدعمون الترجمات لكن الحاجة إلى مضامين تغني الفكر العلمي وإلى متون تؤيد إيديولوجية الدولة جعلهم ينفقون بسخاء؛ حتى أصبحت الترجمة مهنة مربحة؛ فقد كان بنو موسى بن شاكر (32) يُجرون رزقا لمجموعة من المترجمين منهم حنين بن إسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرّة وغيرهم في الشهر نحو خمسمائة دينار (33). ومن الواضح بحسب المصادر التاريخية أن الإنفاق على حركة الترجمة كان أمرا يحدد الحياة الثقافية للنخبة العباسية، حيث إن العديد من هؤلاء وإن لم يكونوا من أهل الصناعة والعلم فإنهم لم يترددوا في إنفاق مبالغ ضخمة على المترجمين لينالوا حظوة ثقافية واجتماعية وهذا لا يتأتى لهم إلا إذا تصورنا أن الترجمة قد أصبحت ظاهرة فكرية وثقافية لا تنفك عن الواقع الاجتماعي في بغداد. ثم إن الدعم المادي والمعنوي لحركة الترجمة لم يكن مقصورا على طبقة معينة، لأن الداعمين جاءوا من جميع الفئات الاجتماعية، بل ومن جميع الفئات الإثنية والدينية؛ من ناطقين بالعربية والسريانية والفارسية، من مسلمين ونصارى وغيرهم من أبناء الديانات الأخرى. غير أن هذه الرعاية ما كان لها أن تكون بهذا الحجم لولا دعم السلطة الحاكمة بتوفير مناخ سياسي واقتصادي مناسب مكن مجموعات إثنية أو دينية متباينة من المساهمة في حركة الترجمة مساهمة متميزة حسنت من جودة النصوص المترجمة.

والمؤرخون يجعلون لتطور الترجمة ثلاث مراحل وهي: الترجمات الحرفية "الأقدم"، ثم المرحلة المتوسطة الأكثر صقلا وهي مرحلة حنين وحلقته، ثم ما تلا ذلك من ترجمات مدرسة بغداد الفلسفية التي كانت في أغلبها مراجعات للترجمات السابقة لها، إلا أن هذا التقسيم الزمني لا يفيد كثيرا في فهم تطور أساليب الترجمة، لأن نموذجا معيناً من نماذج الترجمة يمكن أن يعثر عليه في غير مرحلة واحدة (34).

وحيثما نتحدث عن أعلام الترجمة في هذه الفترة، فإننا نؤكد أن هؤلاء كانوا نشطين في الشرق الأدنى وكانوا يمارسون عملهم في أي بيئة تقدم لهم الدعم الأفضل وهذا ما وجدوه في العاصمة العباسية بغداد؛ حيث أجريت الأرزاق عليهم من طرف الطبقة الحاكمة ومن طرف أغنياء بغداد ووجهائها، الأمر الذي أدى إلى تعريب كمّ مهم من المعارف العلمية ما لبث أن تطور مع تزايد المشكلات العلمية التي كانت تستوقف الباحثين والمترجمين العلماء.

وهذا يدل على أن الترجمة لم تكن غاية في ذاتها، بل مجرد وسيلة لكسب المعارف وتطويرها، إذ إن الاشتغال بالعلوم المترجمة لم يقتصر على جماعة المترجمين فقط، بل تعداه إلى علماء آخرين استثمروا ما هو مترجم في دراسة وبحث قضايا علمية جديدة، وكتاب الخوارزمي في الجبر مثال على ذلك؛ إذ إنه ظهر بين سنتي 198 و215هـ/815 و830م؛ أي بعد مرور حوالي نصف قرن على ترجمة "الأصول" لأقليدس، ويصدق هذا كذلك بالنسبة لما كتبه الكندي حول البصريّات إذ إنه تجاوز الأعمال المترجمة في نواح كثيرة (35)، وهو يبين مرة أخرى دور الترجمة في تحريك الواقع العلمي بدفع العلماء نحو حقول مختلفة للبحث لم تكن لها صلة بالأصول المترجمة عن اليونانية، وهذا يصدق كذلك

على رعاة الترجمة الذين لم يعد اهتمامهم محصورا في المعرفة المنقولة عن اليونان وحدها، بل عمّ كذلك القضايا الأصلية التي أوجدتها هذه المعرفة.

إن حركة الترجمة لم تكن حركة نقل لغوي دوغمائي للنصوص اليونانية، بل كان نقلها نقلا خلاقا ومبدعا بالنظر إلى تلك الفترة التاريخية، ويتضح هذا في كثير من الإضافات والتعديلات التي نعثر عليها مرارا في النصوص المترجمة ولا-نعثر عليها في الأصل اليوناني، وهو ما يدل على أن المترجمين قد صارت لهم خبرة كبيرة بالموضوعات المترجمة فضلا عن خبراتهم السابقة.

إن الترجمات المبكرة كانت في حاجة إلى إصلاح يوافق أصول العربية السليمة وهذا أدى إلى تطور مزدوج، في الأسلوب والمادة معا. وقد يقول قائل: إن الترجمات اليونانية اعتمدت في أغلبها على السريانية، ومن ثم فهو تتألف بين السريانية واليونانية من جهة، وبين السريانية والعربية من جهة أخرى، إلا أن النقد اللاذع الذي وجهه حنين بن إسحاق في "رسالته" إلى الترجمات السريانية المبكرة، قد يزيل هذا الاعتقاد، ثم إن الترجمات التي تمت في الفترة العباسية كانت في أغلبها بتكليف وفق لوائح محددة؛ أي وفق الحاجة العلمية والعملية التي كان يتطلبها الواقع العباسي بكافة تشكيلاته، ومن ثم فإنه من الخطأ أن يقال إن حركة الترجمة اليونانية العربية كانت تعتمد أساسا على المعرفة اليونانية التي كانت منتشرة قبلا بين النصارى.

إن حركة الترجمة هي حركة مختلفة عما كان سائدا من ترجمات متفرقة أنتجت لنا نصوصا محدودة لم تخضع للنقد العميق ولا-للدقة المطلوبة، وعلى العموم فالترجمات ينظر إليها منذ بدايتها على أنها جزء من مسيرة البحث التي كانت تقتضيها التوجهات العقلية السائدة في بغداد، فهي إذن استجابة خلاقة للحركة العلمية والفلسفية التي كانت تتطور على نحو متسارع، والتحليل الموضوعي لحركة الترجمة، سيفيد بلا شك في وضع عملية التثاقف اليوناني العباسي في إطارها ومن ثم سيوجه الآراء التي تتحدث عن مدى حضور الأصالة في العلم والفلسفة العربيين أو انعدامها.

إن هذه المسيرة الحافلة لحركة الترجمة في العصر العباسي لم تنته إلا بإفراد مشروع علمي أصيل أخذ على عاتقه تطوير المتون المترجمة وتشغيل قضاياها ضمن حقول معرفية جديدة، لذا لا يمكن الحديث عن نهاية حركة الترجمة بوصفها ظاهرة فكرية شملت اهتمام فئات واسعة من المجتمع العباسي دون الحديث عن بروز حركة تأليف واسعة عملت على استثمار النصوص المترجمة، وهذا يعني أن حركة الترجمة نجحت في تحقيق مرادها الذي لم يكن بطبيعة الحال هو تركيب عدد كبير من العلوم المترجمة ووضعها في رفوف المكتبات، بقدر ما كان هو الاستفادة من هذه الترجمات في تأصيل قضايا جديدة تهتم المجتمع العباسي وترقى به فكريا وثقافيا، وهذا العمري هو ما حصل بالضبط حتى صارت بغداد آنذاك قبلة المفكرين والعلماء؛ فالتاريخ قد حدثنا عن شد للرحال نحو بغداد

عاصمة الخلافة العباسية حيث يجد العلماء بيئة فكرية وعلمية مناسبة تمكنهم من الاستفادة العلمية والمادية بل والشهرة أيضا، وهي أمور كانت تعز في غيرها من المدن والأمصا، ونختم فنقول إن حركة الترجمة في العصر العباسي الأول كانت وسيلة رائعة نجحت في تحقيق غايتها، أما اليوم فقد صارت الترجمة (36) غاية - في حد ذاتها - نجحت في تبرير وسيلتها (37).

\*\*\*\*\*

## الحواشي

(\* باحث من المغرب.

- 1- دمترى كوتاس؛ الفكر اليوناني والثقافة العربية، ترجمة وتقديم الدكتور نقولا زيادة، المنظمة العربية للترجمة ومركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2003، ص 39.
- 2- دمترى كوتاس؛ م س، ص 62.
- 3 - مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص 373.
- 4 - طوبيقا أو مواضع الجدل؛ هو أحد الكتب الثمانية المكونة للأورغانون الأرسطي المشتمل على الصناعة المنطقية، وهذه الكتب هي كالتالي: المقولات، العبارة، التحليلات الأولى، التحليلات الثانية، مواضع الجدل، الخطابة، السفسطة، الشعر.
- 5- دمترى كوتاس؛ م س، ص 119، وانظر كذلك: أبو الفرج محمد بن إسحاق بن النديم. الفهرست - دار المعرفة بيروت 1978، ص 349.
- 6- دمترى كوتاس؛ م س، ص 129.
- 7- وقد رد الكثير من المتكلمين على بعض القضايا التي تضمنها كتاب الطبيعة لأرسطو مثل هشام بن الحكم والنظام.. انظر: دمترى كوتاس؛ م س، ص 138.
- 8- ول ديورانت - قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود محمد بدران وآخرون، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1988؛ ص 4611.
- 9- دمترى كوتاس؛ م س، ص 101.
- 10- دمترى كوتاس؛ م س، ص 105.
- 11- دمترى كوتاس؛ م س، ص 144.
- 12- دمترى كوتاس؛ م س، ص 152.
- 13- دمترى كوتاس؛ م س، ص 154.

14- دمترى كوتاس؛ م س، ص 159.

15- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباسي، دار صادر، بيروت، الجزء الثاني، ص 465-466.

16- دمترى كوتاس؛ م س؛ ص 161.

17- أبو الفرج محمد بن إسحاق بن النديم. الفهرست؛ م س؛ ص 337.

18- أبو الفرج محمد بن إسحاق بن النديم. الفهرست؛ م س؛ ص 339.

19- لذا يمكن أن يقال عن الحلم الأرسطي بأنه النتيجة الاجتماعية لحركة الترجمة وليس سبباً لها كما هو شائع، انظر دمترى كوتاس ص 175.

20- وهو أحد جلساء المأمون. انظر: أحمد بن أبي طاهر المعروف بابن طيفور، بغداد، تاريخ الخلافة العباسية، مكتبة المعارف، بيروت، 1968، ص 30.

21- هو قاضي بغداد وواحد من جلساء المأمون.

22- ابن طيفور، م س؛ ص 30-31.

23- دمترى كوتاس؛ م س؛ ص 189.

24- وضع ابن قتيبة كتاباً أسماه أدب الكاتب يوضح فيه العلوم والمعارف التي تستوجب المعرفة والإتقان من طرف صاحب الديوان أو الكاتب.

25- لقد ضاع الأصل العربي لهذا الكتاب، لكن جرارد الكريمونائي Gerard of Cremona ترجمه في القرن الثاني عشر، وظلت ترجمته تدرس في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر، ومنه أخذ الغرب كلمة الجبر. انظر: ول ديورانت، قصة الحضارة، م س، ص 4612.

26- أي استخراج مقدار الأرض المعلومة بنسبة قياسية معينة.

27- وقد ترجم حنين إلى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل جالينوس وإلى اللغة العربية تسعاً وثلاثين رسالة أخرى، وبفضل ترجمته هذه نجت بعض مؤلفات جالينوس من الفناء. انظر: ول ديورانت، قصة الحضارة، م س، ص 4609.

28- ول ديورانت، قصة الحضارة، م س، ص 4609.

29- ول ديورانت، قصة الحضارة، م س، ص 4622.

30- ترجم كتباً كثيرة في التنجيم والفلسفة منها كتاب تفسير أربع مقالات لبطليموس.

31- دمترى كوتاس، م س، ص 231-232.

32- وهم محمد وأحمد والحسن ويكونون ببني شاعر المنجم لأن والدهم كان منجما في بلاط المأمون وأشهر مؤلفاتهم كتاب الحيل الذي يحتوي على حوالي مائة تركيب ميكانيكي.

33- أبو الفرج محمد بن إسحاق ابن النديم، الفهرست، م س؛ ص 339.

34- دمترى كوتاس؛ م س؛ ص 238.

35- دمترى كوتاس؛ م س؛ ص 199 - 200.

36- أستثنى بعض الأعمال القيمة التي ترجمها أناس متخصصون في ميادينهم، والتي قضوا زمنا في تدريس متونها وقضاياها قبل الإقدام على ترجمتها.

37- فليس المهم كيف نترجم ولماذا نترجم، بل المهم هو أن نترجم.